من سلسلة
حكايات على ضفاف الخليج
إننـــى أودع الأرض!
تــأليــف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر
الطبعة العشرون يناير 2008
إهـــداء
- إلى كل المكلومين والمظلومين والحيارى...
- إلى كل من يشعر بجحيم الظلم والقسوة والطغيان...
- إلى كل إنسان حقيقي ينشد الحق...
- وينشد العدل والإنصاف أهدي هذا العمل
محمد عبد العزيز أحمد الباكر

[
المقــدمة
من المؤكد أن رياح التغيير قد تحولت إلى عاصفة عاتية وطوفان جارف جعل البشرية وإرثها الثقافي في محك اختبار شديد القسوة لا مفر فيه من الاختيار الحاسم الذي لا يترك فرصة للتوسط أو حتى الانتظار، وعليه فإن الأمم والشعوب ذات الإرث الثقافي والحضاري الأصيل تجد نفسها ممزقة بين ماض حضاري مجيد تمسك بتلابيبه خشية الاندحار إلى ما خلف صفوف الأمم - بعد أن قبض آخرون بقوة على مفاتيح المستقبل الحضاري للبشرية - وبين الاندفاع الذي يتعارض مع هذا الماضي إلى غياهب مستقبل لا ملامح له، الأمر الذي يشكل اندفاع عربة من فوق أحد التلال إلى هاوية غيايب الغيوم وضبابية الرؤية ملامح قرارها ونهايتها.
في مثل تلك المفاصل التاريخية يتوجب على النخب الفكرية من رواد الفكر والثقافة - وقد أصبحوا بموجب ذلك مرشدي الأمة وحُداة القافلة - أن يضيئوا للأمة طريقها من منطلق الخيار الأصوب القائم والمرتكز على الثوابت الحضارية والثقافية والروحية لها دونما إفراط أو تفريط، وخلال هذا المناخ الضبابي الرؤية أو لنقل هذا المنعطف الحضاري الخطير ربما لا تكمن صعوبة الانتقال إلى الأمام حضارياً بموجب التفكير الحضاري السائد بالشكل المادي لتلك الحضارة القائمة على إشباع الحاجات الإنسانية ماديا، ولكن المشكلة الكبرى هي العوائق الفكرية والثقافية ومدى القبول بمبدأ الانتقال في حد ذاته، ناهيك عن الهوة المادية الخطيرة التي تفصل بيننا وبين أصحاب القرار في مقدمة الركب الإنساني المندفع بقوة صوب قرار الهاوية المجهول.
إن القضية في نظري وحسب رؤيتي الشخصية تكمن في امتلاك أدوات المعرفة والوسائل، ويحسمها - أي تلك القضية - فكر منفتح عن اقتناع له القدرة الديناميكية على اتخاذ القرار التاريخي بعد أن يضبط المعادلات والتوازنات الثقافية والروحية للمجتمع لتظل الثوابت في مجال قداستها وهيبتها ولتنطلق المتغيرات في مساحتها الإنسانية الكافية لحرية حركتها وانطلاقها. ويبقى السؤال قائماً بكل أدوات الاستفهام: لماذا ؟.. وكيف؟.. ومتى؟.. وأين؟.
وتظل الإجابة أيضاً غائبة في مكان ما... ربما في عقلٍ واحد وربما في عقولٍ كثيرة، لا أظن أن أمتنا بتاريخها الثقافي والحضاري والروحي عاجزة عن تقديمها.
إن هذه الأمة - التي أهداها الخالق جل وعلا أثمن كنز عرفته البشرية حفظ لها كرامتها وأضاء لها دروب حياتها لتستشرف به مكامن سعادتها وعزتها وهو رسالة الإسلام العظيم التي حملها هدياً ونوراً الرسول الأكرم محمد بن عبد الله [ - لكفيلة عن جدارة واستحقاق أن تتبوأ به إن أرادت تمسكا والتزاماً حقيقياً قمة القمم، لأن الحضارة الحقيقية في جوهرها لم تكن أبداً وسائل حياة تكفل رفاهية تختزن في ثناياها آلام النفس والجسد والتي تفتك بالإنسان روحًا وجسدًا من خلال المرض والوهن ووسائل الدمار، بل إن الجوهر الحقيقي للحضارة الإنسانية هو التسليم لله بعبودية تسعد ولا تشقى وتعطي ولا تمنع. وسلام على من صدع بالحق وأقلع عن الظلم والباطل.
[ {هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} (الجاثية: 29 - 30).
محمد عبد العزيز أحمد الباكر

إنني أودِّع الأرض!
ربما لا توجد مدينة على ظهر كوكبنا تتميز بالهدوء والأمن والسكينة كمدينتنا المتمددة في أحضان الخليج والمستلقية على أكتافه في دعة واطمئنان، وربما أيضاً تلك المدن العربية الأخرى التي يداعب موج الخليج ونسماته أقدامها المغموسة في عطره، لا شك في ذلك... حيث لم

تنل مظاهر الحضارة وسمات التطور، من عقلها وقلبها وفكرها بالمقاييس الغربية للحضارة والتطور فهي تقبل على الحضارة والتطور وفق ثوابت الأصالة والتراث الروحي والإنساني الخالد والعريق لأهلها.
وبمقولة أخرى إنها تنتقي من الحضارة ورودها وأزهارها وثمارها الصالحة متجنبة أشواكها ونباتاتها السامة وثمارها العطنة.... الربيع هنا طقس ساحر في اعتداله يدفع بخصوبة الإبداع الإنساني في مجمل صوره إلى القلوب والعقول في محيط من الإمكانيات المادية التي من الله بها على المنطقة بأسرها فانطلق إشعاعها الخير ليس على أهلها فحسب... بل تجاوز ذلك إلى محيط كوني واسع شمل القاصي والداني.... ولا بأس في ذلك.
فنحن جميعًا ننتمي إلى الدائرة الأشمل والأكبر وهي دائرة الإنسانية أو دائرة الانتماء إلى البشرية على اختلاف ألوانها ومشاربها، فكما نأخذ لابد أن نعطي وتلك طبيعة البشر التي فطر الله الخلق عليها.
انطلق أذان الفجر مدوياً ومخترقًا طبقات الظلام ليبعث في النفوس المتعبة والقلقة طوفانًا من الراحة والطمأنينة يجتاحها باعثًا فيها الأمل بتجدد الحياة ومُفتحًا طاقات الخير فيها، ومطهراً أنسام الفجر من أنفاس العصاة الذين ما برحوا يستغلون ظلمة الليل ستاراً في شراكة وألفة مع الشياطين والطغاة ليكيدوا للخلق وليعثوا في الأرض مفسدين.
«الصلاة خير من النوم».... قالها المؤذن وكان الصوت يسري قوياً في هدأة السحر تحمله الملائكة إلى قلوب وآذان المؤمنين الخاشعين لينهضوا من سباتهم متحررين من الغفلة والسكون ليتطهروا جسداً وروحاً ويستقبلوا يوماً جديداً من أيام حياتهم على وجه البسيطة الفانية ساعين في دروب الخير والحب والسعادة المنطلق من الإيمان العميق بالتسليم للخالق الأعظم جل وعلا متوكلين غير متواكلين.
وتدب حركة الحياة في ذلك المنزل ذي الطابقين الكائن بربوة مطلة على مياه الخليج مع مجموعة من المنازل البيضاء الأخرى التي تكون في مجموعها جزءاً من أحد أحياء تلك المدينة الهادئة الوادعة.
وينهض الرجل من فراشه ويدلف إلى الحمام ليغتسل ويتوضأ... ثم أيقظ زوجته... وذهب ليلقي نظرة على ولده الأكبر قبل أن يخرج للصلاة فوجده مستيقظًا لا تبدو عليه آثار النوم وكأنه استيقظ قبل وقت طويل... لقد كان جهاز الكمبيوتر مفتوحاً.
ابتسم لولده الذي كان يتأهب هو الآخر لصلاة الفجر مع والده... لم يكن المسجد يبعد كثيرًا عن المنزل ربما أقل من مائة متر وصوت وقع خطى عديدة باتجاه المسجد.... دلفا معًا حيث الخشوع والركوع... تركعا معًا، وخلف الإمام ختما صلاتهما معًا ومع بزوغ الضوء الفضي كانا في البيت أيضاً معاً.
دلف الفتى غرفته وفتح باب الشرفة المطلة على مياه الخليج ويا لروعة الفجر... كانت النسمات الباردة المنعشة تهب من جهة الشمال حيث تطل الشرفة، وكان الضوء الفضي ينعكس على تموجات المياه ليصنع أمواجًا من الفضة التي كانت آخذة في التلألؤ شيئاً فشيئاً وتحركت مع الموجات الأولى للتباشير الفضية طيور مهاجرة هجرت قسوة زمهرير البرد في شمال أوروبا تستمتع بدفء موسم الربيع وطقسه هنا على أكتاف خليجنا الدافئة خلال رحلتها الأبدية التي قدرها الخالق الأعظم...
آلاف بل ربما الملايين منها تقطع المسافة بين قطبي الكرة الأرضية وذهاباً وإياباً... تأتي في الربيع متجهة جنوباً هاربة من صقيع أوروبا ثم تغادر عائدة هروبًا من طقسنا الحار الرطب صيفًا إلى أوروبا وطقسها المعتدل... رحلة أبدية مقدورة!.. وسبحان الذي خلق فسوى.. والذي قدر فهدى.. وسبحان الذي أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى!.
كان الفتى يقف متكئًا بكفيه على حاجز الشرفة مطلقًا بصره صوب حافات الأفق متنقلاً به بين السماء يتفحصها وهو يرى النجوم تختفي كلما نصع اللون الفضي أكثر، وبين الأفق البعيد الذي يشكل المنظر في مجمله لوحة هائلة الروعة والتأثير...
كان الفتى منكفئًا داخل نفسه كان يمازج بين هذا العالم الخارجي الرائع وبين ما بداخله وما يدور في نفسه وخلده... كان يبحث عن حقيقة الخلل العظيم الذي أصاب صميم حياة البشر...
يا إلهي! ماذا خبر هذا الفتى من صنوف الخلل في حياة البشر وهو مازال غض العود والروح؟ وأي خبرة اكتسبها ليعيش مأساة الإنسان الحقيقية المتمثلة في الظلم القابع في نفوس أظلمت بجهلها والعمى الذي أصاب بصيرتها.. كراهية.. حقد.. جشع.. طمع.. غدر.. خداع.. حروب وقتل ودمار.. أمم تصادر حق أمم في الحياة... ويا لها من قسوة مجموعات من البشر جبلوا على الغدر وقتل الأبرياء وتشريد الناس... أطفال يتحولون إلى هياكل عظمية لا يجدون الحليب أو الدواء يموتون ببطء... يتعذبون وكأنهم كبار يقاسون آلام المرض... نظرات بائسة لأمهات زاغت أبصارهن... أو أطفال تحولوا في لحظة إلى أشلاء لا يكاد المرء يرى مناظر أشلائهم - حتى أقوى الرجال وأشدهم مراسًا - حتى يتهاوى من داخله مشاعر سقوط الإنسان من كيان إنسانيته إلى ما دون وحوش الغابة التي ربما كانت. حينئذاً أكثر رقة وعاطفة من هذا الإنسان الذي هوى وسقط إلى قرار يجهل له اسمًا أو وصفًا...
ودعاة الحضارة المضحكة المبكية معًا أي حضارة أيتها المخلوقات العجيبة التي لا تفهم ولا تعي سوى إشباع وحشيتها ودونيتها وحقارتها ووضاعتها من دماء الآخرين ومن حقوق الآخرين؟!. لا تعرف سوى إشباع نهمها من دماء الأطفال الرضع والنساء الفجع والشيوخ الركع... كاذبون... غادرون... قاتلون... سفاكو دماء.... يسكرون بدماء الأطفال والنساء والشيوخ... ينتشون بأشلاء البشر ودمار الحياة... يستحلون الحرام ويحرمون الحلال... كل ذلك باسم الحضارة ولغة البطش التي يسمونها التقدم...!! عقول تنكبت جادة الصواب وما فتئت تبحث وتنقب عن وسائل وأساليب وأدوات أكثر وأكبر تأثيراً لقتل الإنسان وتحطيم الحياة.. جوائز وتقدير لمن يسخر علمه وعملة للدمار وسفك الدماء...
ويضحك الفتى ضحكة ساخرة وقد غاب عقله عما يراه أمامه من فضة الفجر التي تتلألأ فوق سطح مياه الخليج الرقراقة الهادئة التي لم تشهد سوى التسامح والأمن وكل قيم الإنسان العليا التي مبعثها إيمان عظيم مطلق بقيم الحق والعدل والصدق والتسامح.

إيمان بقيم الدين العظيم الذي حمله محمد خاتم الرسل [ هدياً ونوراً لبشر يتخبط في ظلام الجهل... بشر يتخيل أنه يصنع حضارة... ويبني صروح التقدم والرفاهية وهو لا يدري أنه يحفر هاوية سقوطه ويغلفها بالقاذورات والجثث المتعفنة ليسقط فيها في نهاية الأمر... بشر يصنع أدوات القوة والبطش وهو لا يدري أن هناك صاحب القوة المطلقة التي لا تحدها حدود ولا تقاومها قوة... بشر يتخيل أنه بمكره وخداعه وبطشه سيحقق ما يريد ولا يدري أن فوقه من هو أعظم مكراً وأعظم بطشًا وهو الفعال لما يريد الذي أهلك عادًا وثمود وقوم نوح وقوم لوط والذي لا ترد مشيئته.. القاهر فوق عباده... الذي يمهل ولا يهمل سبحانه وتعالى عما يشركون.

كان الفتى سارحاً في الأفق اللانهائي وكان بعقله خارج حدود الزمان والمكان، مع النجوم الآفلة والفضة التي تترقرق فوق مياه الخليج هناك عند حافات الأفق، فيما كانت الأم تعد طعام الإفطار بعد أن أيقظت ابنتيها... الكبرى لم تتجاوز الخامسة عشرة، والصغرى كانت قد التحقت لتوها بالمدرسة الإعدادية.

وقف الأب بعد أن ارتدى ثيابه ليتناول فطوره مع أسرته كالعادة وهي عادة لازمته منذ تكونت أسرته في أيامها الأولى، وحين شب ولده الأكبر حرص على أن يدربه على تلك العادة الطيبة ولم يكن ليغيب ببصره وبصيرته ومشاعره عن أسرته وربما زادت وتطورت تلك العادة والإصرار عليها بعد فقد ولده الأصغر والتي فقدته الأسرة حين دهسته سيارة وهو يلعب بدرجته أمام المنزل والذي أثر فقدانه كثيرًا في والده لكن الأب كان قويًا في إيمانه صابراً محتسباً.. نعم كان قوي العزيمة والنفس والإرادة.

لكن ما كان يلفت نظره هو ذلك الابن الذي يقف على أعتاب الشباب، ورغم ذلك لم تؤثر فيه مرحلة المراهقة.. كان متفتح العقل متزنًا وكان أكثر ما يهمه ويشغله بعد دروسه في نهائي المرحلة الثانوية هو القراءة والكمبيوتر الذي يأخذ منه أوقاتاً غير عادية حتى أصبح ذا مهارة عالية في التعامل مع الجهاز وتطويره وحرصه الدائب على حيازة الحديث في عالم الكمبيوتر، إضافة إلى تعامله الدائم مع شبكة الإنترنت وفروعها ومجالاتها العلمية المختلفة...

كان الأب يساوره القلق أحيانًا خوفًا من أن يصرفه ذلك الأمر عن دروسه.. لكنه كان يطمئن دائمًا من مدرسية ونتائجه التي أثبتت تفوقه الدائم في علومه المدرسية وحتى المعارف العامة خارج نطاق علوم المدرسة، الأمر الذي كان يبعث في نفس الأب الراحة والثقة..

أفاق الفتى على صوت والده يدعوه لتناول الإفطار وكان الأب يقف على باب الغرفة مبتسما فبادله الفتى ابتسامة وقال لوالده: «إن منظر البحر وقت بزوغ النهار وهو يلتقي مع السماء عند الأفق في غاية الروعة، لقد أنساني تناول الإفطار».

فاتسعت ابتسامة الأب متسائلاً بدهشة: هل هذه أول مرة تكتشف هذا الأمر؟.

فأجابه الفتى ضاحكاً: «لا إنها عادة يومية تقريباً ولكن أشعر وكأنها أول مرة أرى فيها هذه الروعة الهائلة».

قال الأب وهو يضحك: يبدو أنك ستصبح شاعراً... ثم أردف!.. هيا تناول فطورك واستعد للذهاب إلى مدرستك.

ووضع يده اليمنى على كتف ولده مطوقًا عنقه وهو يقول: «ما شاء الله لقد أصبحت قامتك بقامتي أيها الفتى».. فجاءه صوت الأم التي كانت تمر حاملة أحد الأطباق وهي تقول في فزع: «تعوذ من الشيطان يارجل.. وقل : لا إله إلا الله».

كانت الأم تخاف على أبنائها من العين، وازداد هذا الإحساس كثيرًا بعد فقدها لولدها الأصغر. ضحك الأب بملء شدقيه وهو يتمتم: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثم قال لها: - على رسلك يا امرأة.. أتظنيني أحسد ولدى؟! فقالت الفتاة الكبيرة التي كانت تساعد أمها موجهة الحديث لوالدها: - طبعًا هو ولد ولذلك تحبه أكثر منا نحن البنات. توقف الرجل عن الضحك الذي تحول إلى مجرد ابتسامة وتوجه إلى ابنته قائلاً: - لا يا حبيبتى... أنا لا أفرق أبدًا بينكم في حبي فأنتم أبنائي وقرة عينى. ثم وضع رأسها في صدره وقبلها على جبهتها وهو يقول لها والحنان يقطر من صوته: «لا ترددي مثل هذا الكلام يا حبيبتي مرة أخرى»، وجلسوا جميعًا لتناول إفطارهم.

* * *

انصرف الأب إلى عمله الذي يبدأ في السادسة صباحاً وعاد الفتى إلى غرفته ليعد نفسه للذهاب إلى مدرسته. وكانت خيوط الشمس الذهبية قد مدت أوتارها من الشرق ناشرة ضوئها الدافئ على أرض الله في دورتها الأبدية المقدرة، وانصرف إلى مدرسته القريبة.

كان الفتى محل احترام أساتذته وطاقم التدريس لكفاءته وتفوقه العلمي ولأخلاقه الكريمة في تعامله حتى مع زملائه، وما كان يلفت النظر أنه - ورغم سنه الصغير الذي يعتبر فترة المراهقة في عمر الإنسان - كان يبدو بعيدًا عن خصائص تلك السن.

وحتى الفتيان المشاغبين الذين يطلقون لأنفسهم العنان في إثارة الفوضى والمشاكل والذين لا يهتمون بدراستهم قدر اهتمامهم برغباتهم النفسية ونزواتهم الطائشة وحكاياتهم المثيرة كانوا يكنون له احترامًا بالغًا ليس فقط من أجل أخلاقه بل لقدرته النفسية والبدنية لرد أي محاولة اعتداء عليه، فقد كان شديد الاعتزاز بنفسه وبكرامته.

لم يقتصر مجال تفوقه في العلوم فقط بل كان أيضًا متفوقًا في ممارسة الرياضة والتمارين البدنية ويبدو أيضًا أن الانشغال النفسي والذهني لذلك الشاب بالقراءة والكمبيوتر واستخداماته واهتمامه الكبير والزائد على الأخص بعلوم الفلك والفضاء وولعه الشديد بمتابعة كل ما يتعلق بفنون الفضاء ولاسيما الأفلام السينمائية ومسلسلات حرب النجوم التليفزيونية.

كل ذلك كان يجعله بمنأى عما يفكر فيه الكثيرون من أقرانه وأترابه ليس ذلك فقط بل الغريب في الأمر أنه كان يحمل في ذاكرته نتاج قراءاته للأعمال الأدبية المترجمة للعديد من الأدباء العالميين الكبار أمثال أدباء روس ديستويفسكي وتولستوي ويوشكين وجوركي وألبرتومورافيا الإيطالى، وفيكتور هوجو وتشارلز ديكنز والكسندر ديماس الكبير والكسندر ديماس الصغير التي استطاع من خلال أجازاته الصيفية أن يقرأها ويقضي جل وقته مع مؤلفاتهم في حالة مرضية من حالات القراءة التي أدمنها وفهمه الناضج إلى حد كبير وغريب على

هذه السن للحياة وتساؤله المستمر بقلبه ومشاعره اللذين لم تلوثهما مفاسد الحياة وشرورها عن ماهية الشرور التي تعصف بعالم يتخيله هو متجهًا إلى الجنون بعد أن أصبح على حافة هاويته، واستغرابه وتعجبه من التناقض الكبير والخطير في قياسات القيم العالمية والتعامل الانتقائي العنصري الشرير لقوى تدعي لنفسها حراسة القيم والحفاظ عليها في الوقت الذي تمارس فيه نصرة الشر وقواه ودعم شياطين الإنس وإثارة عربدة القوة والبطش والطغيان للفتك بالأبرياء وتشريدهم وذبح الرضع والنساء.
كان كل ذلك يصيبه بتمزق نفسي إلى أن أدرك علة الضعف ومكامن القوة بعمره الصغير وعقله الكبير، ولم يأت الأمر من فراغ.
فهناك الصحف والتلفزة المتعددة الجنسيات والبث المباشر من أماكن الأحداث والحكايات والروايات وحوارات الزملاء في المدرسة والأهل في المنزل. كانت الدائرة تضيق على الفتى الغض العود والطاهر الروح الذي بدأ يتوجع مما يدور ويحدث... صرخات منذرة تريد أن تلفت الانتباه إلى خطورة الأوضاع وإلى مكائد الشيطان...
صرخات تريد التنبيه إلى الخبث القادم عبر قيم السلام الزائفة التي يريدون أن يحققوها على أشلاء الأطفال والنساء والشيوخ... الزيف والإجرام والباطل روح الشيطان في صورة قديس يبشر بجنة زائفة أنهارها من سمن وعسل..
غول متوحش يستهدف مصير أمة بكاملها يستهدف تاريخها العريق وحضارتها الموغلة في أعماق تاريخ الإنسانية ورسالتها السماوية العظيمة... باسم السلام والحق والعدل وحقوق الإنسان يستهدف مصير أمة تنكبت جادة الحق ودروب الهدى فوجدت نفسها فجأة بين فكي وحش هلامي شرس غذاؤه مصير أمة وشرابه دماؤها... وأي أمة!! إنها خير أمة أخرجت للناس! كان الفتى يعيش داخله الصراع المرير مجسدًا في التناقضات الصارخة بين سوق تباع فيه القيم...
كل القيم لا فرق... كل القيم تباع وتشتري فقط بالكلام سواء كانت قيم السماء العليا أو قيم الأرض التي تعارف عليها البشر منذ بدء الخلق وصولاً إلى بدايات القرن الحادي والعشرين.
أي دائرة جهنمية تلك التي تحيط بروح الفتى وعقله.. وهو ابن الثامنة عشرة!.. وكيف سيشعر بها الجيل القادم والأجيال التي ستليه؟!.. لا لابد من مخرج... لابد من كسر دائرة الشر تلك... لكن كيف؟.
ويأتي الجواب: الإيمان والعمل المنطلق من الإيمان الصادق بالحق الأعلى ورسالته السامية... ويعود الفتى بعقله الذي يغلي من الإجهاد.. لقد تمكن أجدادي خلال مائة عام فقط منذ بدء الرسالة من فتح العالم كله تقريباً لينشروا فيه منارات الهدى والنور وليدمروا كهوف الظلم والظلام في كل مكان داسته أقدامهم.. لم يروموا جاهاً ولا مالاً ولا سلطاناً سوى إحقاق الحق ونور الهداية العظيم وإنهاء عبودية الإنسان للإنسان... كانوا يريدون هدفًا عظيماً تخافه الشياطين والطغاة.. كان يريدون إعلاء كلمة: لا إله إلا الله محمد رسول الله وشريعة غراء قوامها العدل والحق والمساواة.
ثم يعود عقل الفتى ليتساءل: لكن قوى البغي والشر الآن في عصرنا تمتلك أعتى ما وصل إليه عقل البشر من أسلحة فتاكة هائلة الدمار.
ثم يلهمة عقله الإجابة في منطق سليم وفي صورة تساؤل: - وهل كان أجدادي سوى رعاة حفاه قليلي العدد والعدة في مواجهة أعظم قوتين على وجه الأرض في ذلك الوقت... الروم والفرس؟! ويهدأ عقله قليلاً ليعود إلى حالة السخونة والغليان وهكذا.
كان الفتى يعيش حالة جيل كامل يرى الهوان بحذافيره وتفاصيله ويرى الحثالة التي جاءت شراذم من كل بقاع الأرض لا يجمعها أو يوحدها شيء سوى هدف واحد هو اقتلاع جذور الأمة باسم أرض المعاد.
لقد فسر الفتى كل أنواع الشرور وانهيارات القيم هنا وهناك في جسد الأمة - من سلوكيات معيبة تنتشر في جسدها كالحقد والغدر والانحراف والكراهية والشوفينية القطرية البغيضة - بأنها انعكاس لمرآه.. ظهر فيها ذلك الشيطان وإتباعه.
ويستحضر عقله إجابة التساؤل حول أجداده وكيف حملوا منارة الهدى والعدل والمساواة وهم القلة في العدد ويفتقرون العدة والعتاد؟.. إنهم حملوا في نفوسهم وقلوبهم أقوى سلاح وأعظم عدة وعتاد.. إنه لا إله إلا الله محمد رسول الله.... حملوا رسالة الله وطبقوها منهاج حياة وراية جهاد فوطئوا بأقدامهم أقوى رايات الطغيان وحطموا بإيمانهم أمنع قلاعه وأضخمها... طلبوا الموت فوهبهم الخالق سبحانه وتعالى الحياة ومن قضى منهم نحبه فقد تنعم في نعيم جنة الله لا جنة البشر خالداً فيها ودانت الدنيا لهم وهم فيها زاهدون لا يرجون فيها ذهباً ولا مالاً ولا جاه ولا يرجون سوى مرضاة الله تعالى ورسوله الأكرم محمد [.
ويتمتم الفتى وقلبه خاشع {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3)} (سورة النصر) صدق الله العظيم.
لم يكن أمام الفتى من مهرب سوى الكتب العلمية وجهاز الكمبيوتر الذي كان قد برع في فهم أسراره وألغازه، لكن الفتى في حقيقة أمره كان مشدوداً إلى الفضاء بقوة، كان فكره يدور حول الأفلاك والمجرات بكواكبها ونجومها، كان هذا الفضاء الواسع العظيم- الذي ينبئ عن عظمة الخالق جلت قدرته والذي يحاول الإنسان بكل طاقاته وإمكانياته العلمية والمادية فك أسراره، ولم يستطع رغم كل ما بذل من جهد وطاقات أن يكتشف سوى قشور معرفية لا تشبع نهمه ولا فضوله - هو شغله الشاغل وعمله الدائم ويتذكر الفتى تفاصيل أفلام الخيال العلمي حول الفضاء وسكانه عبر المجرات... نعم لقد كانت أفلامًا سينمائية وتليفزيونية لعب فيها الخداع العيني الدور الرئيسي في تصوير المشاهد... لكنها كانت تثير عقله ومشاعره.
لكن ما كان يثيره أكثر هو الأخبار التي كانت ترد بين الفترة والفترة عن الأطباق الطائرة.. ليس ذلك فقط بل الكتب التي نشرت عن الأطباق الطائرة والتفاصيل المثيرة التي رواها من تعرضوا لهذه الأطباق الطائرة والمخلوقات التي كانت تقودها... وتفاصيل مثيرة أخرى حول ذلك الأمر عقله كان يعمل في هذا الاتجاه بقوة من خلال السؤال الأبدى: هل حقًا توجد مجرات مأهولة؟ وهل حقًا هناك محاولات من سكان تلك

المجرات لغزو كوكب الأرض والإتصال بأهلها؟! وتتولد من ذلك السؤال أسئلة أخرى حول طبيعة تلك المخلوقات... مدى تقدمهم الهائل الذي يمكنهم من تلك الزيارات والعودة دون أن يتمكن البشر من استضافتهم ومد جسور صداقة معهم وتنفر نفسه حين يتذكر مدى الشر المخيف الذي يتمتع به البشر.. أهل الأرض وسكانها الذين يحاولون فقط من أجل مصالحهم وأهدافهم الشريرة.. ليؤكدوا ظلمهم وليزيد طغيانهم ولينقلوا فسادهم وشرهم إلى تلك المجرات التي يبدو أن أهلها قد فهموا ووعوا ما على الأرض من فساد وظلم وشر.

وهكذا كان الفتى يعيش صراعاً خفيًا داخل نفسه وفي عقله الباطن بين الواقع المرير في حقيقته وبين ما يجب أن يكون... وبين ما يقال وينادي به وبين ما يحدث بالفعل... لكنه رغم هذا الصراع كان قويًا بما يكفي ليسيطر على توجهات هذا الصراع داخله وفي توازن يجسد نفسًا سوية غير مشوهة، ضبط توازنها إيمانه العميق وتغلغل قيم ذلك الإيمان في نفسه، الأمر الذي شكل منها - أي من هذه القيم - أساساً لإدارة الصراع وحركته داخل نفسه وفي أعماقه ولذلك لم يفرز هذا الصراع الفكري والوجداني في هذه النفس الغضة انحرافًا أو نزوعاً إلى تصرفات عادة ما نشاهد سماتها وملامحها فيمن يتعرضون لمثل هذا الصراع حتى من الكبار الذين وصلوا إلى حافات النضوج السني والعمري والعقلي.

ولذلك وبسبب هذا التوازن توجه الفتى بكليته وبكامل قواه إلى الغوص في أعماق العلوم والدراسة فتفوق فيها وها هو يخترق حواجز وأسرار جهاز الكمبيوتر، وكانت لحظات سعادته حين يغوص في الصفحات العلمية لشبكة الانترنت يمحصها ويفكر في ألغازها التي تصعب عليه حين تواجهه مشكلة ما خاصة في الجانب الذي وجد في نفسه ميلاً زائدًا إليه وهو الفلك والمجرات والأطباق الطائرة..

لكن ما السبب الرئيسي الذي دعا ذلك الفتى للتوجه نحو علم الفلك وهو بالأساس يعتبر علم الفضاء؟!. لقد كان السبب الرئيس هو أنه توصل من خلال اطلاعه وقراءاته في هذا الجانب المثير إلى أن العرب القدامى هم رواد هذا العلم من معلومات علمية موثقة تقول في سياق تاريخ علم الفضاء إن من بين أول الأمم التي أنجزت دراسات وتوصلت إلى معلومات عن النجوم كان العرب في مصر القديمة وعرب بلاد ما بين النهرين إضافة إلى الصينيين بالطبع وجميع هذه الأمم والشعوب حددت مدارات فلكية! كما اتضح له من خلال معلوماته التي استقاها من مراجع الكمبيوتر أن التحديد الدقيق الأول في التاريخ لعدد أيام السنة توصل إليه قدماء المصريين وهو «365» يوما كما وجد أيضًا أن قدماء المصريين اهتموا اهتماماً بالغاً بأحد النجوم وهو النجم «سيريوس» حيث إن تاريخ شروقه كان يمكنهم من معرفة موعد فيضان النيل الذي يفيض لزراعة الأرض.

كما أن الأهرامات بنيت بشكل منتظم فلكيًا في تناسق مع النجوم والكواكب كما وجد أن الآشوريين هم أول من جمع ورتب معلومات مجدولة عن علم الفضاء ولا أحد من باحثِ وعلماء التاريخ القديم كان يجري مكتبة آشور بانيبال في أرض العراق. وحتى البابليين في العراق أيضًا ومن خلال عالم الفضاء البابلي تابورياتو وكيدونو «500 - 380 قبل الميلاد» أنجزوا مستوى رفيعًا في هذا المجال. وعلى مستوى علماء المسلمين فقد شيد أولوغ بك مرصدًا فلكيًا في سمرقند، ثم العالم المسلم محمد أبو الوفا «959 - 988» وهو من أبرز علماء الفلك في معهد بغداد الفلكي العلمي وكتابه الذي أسماه (المجسطى) حول علم الفلك. وعالم الرياضيات العربي أبو علي الحسن بن الهيثم الذي عاش في الفترة من «987 - 1038»، والذي قدم للتراث العلمي الفكري أول وأهم مرجع في علم البصريات.

حتى الحكام المسلمين، فها هو المأمون عبد الله وهو ابن أحد أشهر الحكام المسلمين في العصر العباسي هارون الرشيد الذي اهتم بترجمة وجمع العديد من الإنتاج العلمي الإغريقي والفارسي وبنى المرصد الكبير عام 829م.

وها هو الصوفي العالم المسلم الفارسي الذي استطاع إنجاز جدول يضم 1018 نجمًا بمواقعها ودرجات بريقها وألوانها. كان هذا الاطلاع والبحث والوقوف على تلك المعلومات المهمة الموثقة من مصادرها المحايدة تمنح الفتى ثقة كبيرة في نفسه وفي تاريخه وفي مستقبل أمته، كان دائماً يشعر بالسعادة حين يواجه هذه المعلومات التاريخية عن المساهمة العظيمة لعلماء أمته الأولين في تأسيس وبناء الحضارة الحالية القائمة.

كان يعلم يقينًا أنها ليست فقط قضية مساهمة بل ربما كان الفضل الأوفر والأكبر فيها لعلماء المسلمين والعرب في صنع وتأسيس الحضارة الغربية التي نحت جانب الشر في معظم نحوها بافتقارها إلى الغذاء الروحي العظيم المتمثل في رسالة التوحيد ودين الإسلام وقيمة العظيمة التي تمنح الإنسان على هذا الكوكب السعادة الحقيقية والإطمئنان والإستقرار النفسي الذي يشعر بدونه أن هذه الحضارة بكل منجزاتها عجزت أن تمنحه الراحة النفسية والطمأنينة بل كانت مع كل إنجاز تقني تضيف إلى قلقه وتوتره وتعاسته بُعدًا آخر يضاف لحصيلة التوتر والقلق والهواجس التي تعصف بروحه وبالتالي بمستقبله كله.

ويثور سؤال وسؤال وتبدو التساؤلات داخل نفسه وعقله كدوامات تتسع وتتسع وتتسع وهو ساهم سارح معها إلى أن يسيطر على حواسه.

لماذا هذا الشر العظيم الذي يحيق بالعالم؟.

لم يكن يعلم أنها رياح الشر وسموم الباطل الذي يتربص بالبشرية عامة وبالمسلمين خاصة.

إنها الريح التي يتشمم منها حكماء البشر من المسلمين وغير المسلمين رائحة الشر مع اقتراب الدجال لعنه الله الذي اقترب موعده كإحدى علامات الساعة. إنه ذلك السامري اللعين الملوث في نطفته بلقحة الشيطان الذي شارك أباه مضاجعة أمه حيث كان أبوه وأمه يسجدان للشيطان من دون الله.

وها هو الرسول الأكرم محمد بن عبد الله الذي لا ينطق عن الهوى يحذر البشرية كلها عامة والمسلمين خاصة.

يقول [ في هذا الخطاب الرسالة الذي رواه الصحابي الجليل أبو أُمامة رضي الله عنه عن النبي [ وأخرجه ابن ماجه في مسنده وكذلك ابن خزيمة والحاكم. «يا أيها الناس... إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم فتنة من الدجال، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر

الأمم وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين أظهركم فأنا حجيج لكل مسلم وإن يخرج من بعدي فكلٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم».

صلى الله عليك وعلى آلك يا خير خلق الله ويا أكرم بني البشر وسلم تسليمًا كثيراً.

نعم إن هذا هو المفتاح الحقيقي للغز الشر والظلم ورياح السموم التي تهب على العالم مؤذنة بالنهاية بأمر الله ومشيئته حيث لن يفلت منها ولن ينجو سوى المؤمنين المتقين الصالحين من عباد الله الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

مضت الأيام من حول الفتى هادئة رتيبة إلا أن عقله وقلبه عافهما الهدوء والرتابة فهو في دراسته دائم التفوق، يحوز على رضاء معلميه وأسرته التي لم تكن تتأفف أبدًا من طلباته الخاصة ببرامج الكمبيوتر والأجهزة الملحقة به من أحدث الأنواع وقارب العام الدراسي على الانتهاء وحان وقت الامتحانات النهائية التي يتم بتجاوزها الانتقال إلى الجامعة في مرحلة أكثر عمقًا في علمها وبحوثها وأرحب في مجالاتها المعرفية، وبالفعل فقد أثار دهشة الجميع بحصوله على كامل الدرجات النهائية في المواد العلمية والرياضيات وعلى الأثر عرضت عليه الجامعة في اختبار مفتوح الالتحاق بأي كلية وأي قسم يشاء - فاختار الفتى... كلية العلوم واختار قسم الفيزياء على وجه الخصوص.

لم يكن يثير الفتى فقط تلك المعلومات المتعلقة بكوكب الأرض ومجموعته الشمسية وعلاقتها بالمجرات الأخرى كهدف، ولكنه كان يشعر بفضول كبير نحو الحقائق العلمية للغلاف الجوي للأرض وقضية المادة والطاقة، باعتبار أن هذه الحقائق العلمية وفك رموزها والوصول إلى جوهر أسرارها العلمية هو الهدف الأسمى الذي يجب أن يكرس له عقله ووقته. ولم يكن فضولة ينطلق نحو هذا الاتجاه من فراغ، بل يبدو أن فهمه لحقائق الأحداث وموقع أمته المتخاذل والمتراجع في مضمار التقدم العلمى والتقنى - رغم العقول العلمية التي تتميز بالعبقرية من أبناء هذه الأمة وفي كافة التخصصات العلمية وشتى حقول المعرفة والتي استطاعت قوى الشر التي أضحى عداؤها لأمته وعقيدته عداءً سافراً وينذر بمخاطر عظيمة على مستقبلها باعتبارها الهدف الرئيسي والأصيل لنظرة الغرب العدائية - وفهمها القاصر لعظمة دينها ورسالتها أن تستقطب هذه العقول وتحتويها وتستأثر بعلمها وتسخره لتعزيز قوتها. ومما كان يثيره ويجعله ينقب أكثر ويتجه بفكره نحـــو المادة والطـــاقة وحقائق الكون العلمية ما قرأه عن تكـــوينات الغلاف الجوي بدءًا من طبقة التروبوسفير(sphere Tropo) وهي طبقة الغلاف الجوي المباشر الذي يبدأ من نقطة الصفر على وجه الأرض والممتد لما يقارب ثمانية أميال والذي يحتوي أربعة أخماس كمية الهواء في الغلاف الجوي بأكمله والمحتوي على الأوكسچين والنيتروچين بصفة أساسية وتناقص درجات الحرارة كلما زاد الارتفاع ، ثم منطقة التروبوبوز(Tropopose) وهي المنطقة التي تلي نقطة التروبوسفير مباشرة وهي فاصل ضيق ما بين منطقة الغلاف المباشر للأرض »تروبوسفير« ومنطقة الاستراتوسفير(Stratosphire) هذه المنطقة تروبوپيوز ذات الرياح المخيفة التي تبلغ سرعتها من مائتي إلى ثلاثمائة ميل في الساعة والتي تعتبر أمرًا غير عادي.

ثم غلاف الاستراتوسفير Stratosphire التي استطاع الإنسان أن يكتشف خصائصها وبخاصة أن جزءها الأسفل منح الإنسان منطقة مثالية للسفر الجوي بعيدًا فوق منطقة التروبوبوز عنيفة الرياح. وكان يلفت نظر أساتذته في الجامعة بمحاوراته الجادة حول أبحاث تتعلق بالأشعة الكونية والسينية وفوق البنفسجية القوية المندفعة من الشمس باتجاه الأرض والوظيفة الإلهية التي أبدعها الخالق الأعظم في الجزئيين الأوسط والأعلى من هذه الطبقة، حيث تتكفل الطبقة العليا من غلاف الاستراتوسفير بالعمل كدرع واقية للأرض تحمي الإنسان من هذه الإشعاعات القوية ثم تأتي المنطقة الوسطى وهي تشكل طبقة الأوزون التي تعمل كمصفاة لامتصاص التأثيرات الحارقة من الأشعة فوق البنفسجية لتصل للإنسان بخيرها فقط بعد أن يتلاشى خطرها وشرها، وعلى ذلك فإن حرارة المنطقة الوسطى التي تفوق حرارة مناطق حزام الاستواء قد وجدت لها تفسيراً علمياً مقنعاً بموجب تصادم الأوزون مع الإشعاعات وامتصاصه القوة الحارقة لها.

ثم المنطقة الأيونية أو الأيونوسفير (Ionosphere) والتي تجد الشمس لها بأشعتها في هذا الغلاف القدر الكافي من جزيئات الهواء ليحدث اتصالها الحقيقي بالأرض ونقاشاته حول الفجر القطبي التي يطلق عليها اسم «أوروورا» التي يظهر بها أحياناً تلك الومضات المضيئة اللامعة، وهذه الظواهر كثيرة الحدوث فوق القطبين الشمالي والجنوبي للأرض بسبب انطلاق كميات ضخمة من الهيدروچين ومن الطاقة الكهربائية بسرعة هائلة في اتجاه الأرض تبلغ حوالي ثلاثة آلاف ميل في الساعة، والسبب اصطدام هذه الشحنات الكهربائية بالغازات التي توجد في طبقات الجو العليا يحدث التأين الشديد الذي يولد هذا التوهج من الشرر ذي الضوء الأبيض الذي يختلف في شكله من القدوس إلى النافورة.

كان الفتى يسبح الخالق العظيم الذي صنع هذا الكون ونظمه في دلالة عظيمة على عظمة قدرته، ودعا البشر في نفس الوقت ليتبصروا في هذه القدرة العظيمة وليتعلموا كيف يصلون إلى فهم هذه الأسرار لأن العجز البشري هو في دلالته يحمل معنى الإيمان والوصول إلى مفاتيح أسرار العلم بالقدرة البشرية هو دعوة إلى توحيد خالق هذا العلم وهذا الكون العظيم.

ثم يأتي في نقاشاته إلى منطقة الأكسوسفير Oxosphere وهو الغلاف الأخير في طبقات الجو العليا وتلك الشهب في حركتها السريعة باتجاه الأرض حين تصطدم بتلك الأغلفة فتتبدد وتحترق، الأمر الذي يبين قدرة الخالق الأعظم الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى حين حفظ الأرض وسكانها من البشر من تلك الشهب الذي يمكن لأحدها - لولا تلك الحماية الربانية - لو اصطدم بالأرض أن يخفي دولاً وشعوباً من الوجود.. لكنها دائماً إرادة الله وقدرته وعظمته في خلقه.

ويقتحم الفتى الظواهر الجوية والمناخية في حالة بحث استقصائي متواصل ويبحث ما يتعلق بالطاقة الهائلة في الكون ويتأمل ظواهر الرياح والعواصف حين ترسل الشمس أشعتها الدافئة للأرض في دورانها حول محورها واستجابة كل من اليابسة والماء والهواء بشكل معين حيث

يظهر رد فعل الأرض الصلبة بطيئًا ويكون الماء أسرع في استجابته نوعاً ما، أما الهواء غير المحصور فتكون استجابته زئبقية فتارة يعلو ويهبط تارة، ومرة يفيض حيث تتسبب ملامسته للأرض والماء في تزويده بالنصيب الأكبر من الدفء.
وينظم الهواء نفسه وفقًا للتغير الذي يحدث في درجات الحرارة بالنسبة لتأثره بتوزيع اليابس والماء، حيث إنه بطبيعته يتمدد حين يسخن وينكمش إذا برد وتكون كتلة الهواء الساخنة المتمددة خفيفة لأنها تحتوي على قدر أقل من جزيئات الغاز.
أما الهواء البارد فهو أثقل لأنه محمل بقدر أكبر منها ولذلك تحدث اختلافات في الضغط حيث الهواء الساخن يكون أخف ضغطًا من الهواء البارد الذي يصبح ثقيلاً ذا ضغط مرتفع. وينتج عن عملية التسخين غير المتجانس للهواء قوتان متعارضتان على الفور حيث ينتج عنهما هبوب الرياح وبدء التيارات الهوائية، فالهواء البارد بضغطه الكبير يهب ليقابل الهواء الساخن ذي الضغط المنخفض وينشأ عن ذلك التلاقي في صراع عظيم وهائل هو منشأ الطقس وما يحدث يوميًا في الكتل الهوائية هو سبب تنقلها حول الكرة الأرضية في تدفق أو توقف باندفاعات جنونية ودوامات مدمرة.
وتأثيرات الهواء التي تظهر فجأة في الحياة اليومية على هيئة رعود قاصفة مصاحبة للعواصف العاتية تعتبر من الاضطرابات القليلة الحدوث. غير أن التدمير الشديد والخراب الذي يحل بالبشر أحيانًا يكون بسبب تلك الاضطرابات.
ويحاول الفتى في استقراءاته العلمية أن يصل إلى نظرية الطاقة واستغلال الهواء الذي يمكن أن يكون قوة هائلة أثناء نقاشه مع أساتذته، وهم يناقشون قوة الرياح الهائلة المدمرة لأعاصير شهيرة مثل تايفون في بحر الصين وميتس في أمريكا الوسطى وتورنيدو في أمريكا الشمالية.
وتأتي التفسيرات العلمية لتضيف للفتى رصيدًا من العلم يزداد ويكبر يوماً بعد يوم.. وها هي الشمس اللافحة حين تسخن بشدة أعمدة الهواء فوق سطح البحر الدافىء فيرتفع الهواء المتجمع الساخن إلى أعلى فأعلى حتى تتكون كتلة ضخمة ذات ضغط منخفض ثم يتخلص الهواء المضطرب من حملة الثقيل من بخار الماء حين يصطدم بالمناطق الأشد برودة التي تعلوه من السحب الداكنة تهطل السيول وتلهب الرياح أمواج البحر الهائلة ويبرق البرق وتهدر الدوامات المائية المتحركة وتسمع قصفات الرعد وينطلق الهواء بشدة لا تستطيع قوة في منطقة تأثيره أن تسيطر عليه.
وخلال أيام قلائل تتسع العاصفة لتبلغ مئات الأميال ويتشكل في وسطها عين يتمكن الهواء فيها من رفع ما يعادل بليوني طن من الماء يوميًا وفي أثناء ذلك تهب الرياح العاصفة بسرعة حول العين أو مركز العاصفة تبلغ حوالي مائة وخمسين ميلاً في الساعة.
ويعلم الفتى الشاب أن القنبلة الذرية التي بدأ يدرسها فيزيائياً تتضاءل في قوتها إذا قورنت بالطاقة الهائلة التي تنطلق من الهاريكان أو هذه الدوامات من الرياح الهائلة القوة.
ثم التورنيدو أو الدوارات القاسية على اليابسة التي تتحول في وقت قصير إلى عواصف عاتية، ويقع أكثر من 90% منها بالولايات المتحدة الأمريكية ويضع الأساتذة منطقتي ورستسر وماساشوستس اللتين خربهما التورنيدو في يونيو عام 53 كمثل على قوة هذه الظواهر والطاقة الهائلة بها. ويتكون التورنيدو عندما تبلغ العاصفة الرعدية مداها، فعندما يتصاعد الهواء الرطب الساخن بسرعة يقابل كتلة متقدمة من الهواء الجاف البارد على بعد نصف ميل أو أكثر فوق سطح الارض، ويحدث عادة عندما يتقدم الهواء البارد أن يتمكن من تدبير مكان لنفسه تحت الهواء الساخن ويحول اندفاع الهواء الساخن الشديد دون هبوط الهواء البارد ولا يمكنه من اختزانه إلا عن طريق إسفين بارد يؤثر من أعلى وينشأ عن التصادم الجاف برودة الهواء الساخن حيث يترتب على ذلك تخلصه من بخار الماء، فتيار الهواء الساخن الصاعد يتخذ مظهرًا غريبًا إذ يتدلى منه مخروط من السحب الرعدية ينذر بالدمار نتيجة لاندفاع الهواء الساخن عند محاولته ملء الفراغ الجزئي الناتج من الحلزون المتجه إلى أعلى، ويقاوم الفراغ داخل المخروط الهواء المندفع فيدور حوله بسرعة تتراوح من مائتين إلى خمسمائة ميل في الساعة أو أكثر وفي أثناء تحرك التورنيدو من مكانه يلتقط كل ما يقابله تاركًا الخراب والدمار.
وحركة التورنيدو غير منتظمة لا يمكن التنبؤ بها وتأثيراتها مثل انهيار المباني واقتلاع الأشجار وتدمير خطوط السكك الحديدية التي تلتوي وتلقى بعيدًا عن مكانها وبعثرة البشر في الهواء وإلقائه بهم بعيدًا. وعلى الرغم من أن الطريق الذي ينكب بالتورنيدو يبلغ طوله في المتوسط إلى 12 ميلاً ونادراً ما يصل إلى عشرين ميلاً إلا أنه يسجل في فترة نشاطه القصيرة دماراً هائلاً وخسائر جسيمة. ودائماً يأتي التساؤل ويدور في نفس الشاب: «أنَّى للإنسان مهما وصل إلى اختراعات وتسلح بأعتى الأسلحة - أن يقف في وجه الهواء؟».
ويقول في نفسه: «إن ما يحدث تذكير فقط للبشر بقدرة الله الهائلة الذي يستطيع فقط بالهواء أن يجعل الكرة الأرضية كالعهن المنفوش فماذا فهم البشر؟!».. لا شيء.
ويتذكر الآية الكريمة { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} (الأحزاب: 72).
ويتعجب الشاب وهو يغوص في أعماق العلوم وأسرارها ويتوقف في إحدى وقفاته أمام ظاهرة العواصف الرعدية التي تعتبر مجرد فوران بسيط للهواء الهائج بسبب حرارته العالية ثم تعرضة للتبريد خاصة في المناطق الاستوائية والمعتدلة خلال الصيف حين يتصاعد الهواء الساخن الرطب ويصطدم بالهواء البارد الذي يعلوه فيتخلص من بخار مائه الذي تتكون منه سحب ضخمة تشبه ما يحدث عند نفخ أحد المساحيق، ويستمر الهواء في فورانه داخل السحب الرعدية وتعمل التيارات الهوائية الرأسية القوية في توسيع حيز السحب وعندما يندفع الهواء البارد إلى أسفل على أحد الجوانب فإنه يندفع للخارج هبات من الريح والمطر، وتشطر تيارات الهواء الصاعدة قطرات المطر وتشحنها كهربياً حيث تشحن الأجزاء المختلفة من السحابة بشحنات مختلفة نتيجة احتكاك التيارات الصاعدة والهابطة بقطرات الماء.. ومتى تكونت الشحنات الموجبة والسالبة فلا مناص من حدوث الشرارات الكهربية مادام يوجد الموصل.

ورغم أن الهواء رديء التوصيل فإن الاحتكاك غير العادي في السحابة الرعدية يعمل على تأينه، فيتولد تيار من الهواء المتأين غير المنظور منبعثًا من السحابة ويأخذ الاتجاه الذي تحدده الشحنات الكهربية المتجمعة حوله.
ولما كان من المحتمل أن تختزن الأرض أو إحدى السحب المجاورة شحنات كهربائية مضادة فعندئذ يتخذ الهواء المتأين مساره حيث تكون قوة التجاذب أشد نتيجة لاختلاف الشحنة الكهربائية. وعندما يصطدم تيار الهواء المتأين بالأرض أو بالسحابة المجاورة تبرق السماء بومضات منيرة تأخذ أشكالاً متعرجة قريبة من الأرض أو عالية عنها.
وبعد أن يدفع الهواء جانبًا بقوة البرق يسرع إلى شغل مكانه ثانية بصوت قوي يعرف بالرعد. وعلى الرغم من شدة الصوت المنبعث من العواصف الرعدية فإنها لا تقارن بالهاريكان أو التورنيدو في ما تسببه من دمار.
ويلاحظ الشاب أنه رغم أن هذه الظواهر المسموعة والمرئية تعرض عرضًا يتصف بالعنف وإشاعة الرعب فإن الهواء غير المنظور هو محور هذه الاضطرابات حين يكون في حالة عدم استقرار وتظل حرارة الشمس هي القوة الدافعة التي تحرك الهواء على الأرض.
وأما دوران الأرض فيساعد على رسم مسار الهواء فبينما تدور الأرض يدور معها الهواء ويتغير اتجاهه بانحرافه جهة الشرق ولا يتحرك الهواء كإطار جامد يدور حول محور ولا كريح الشيطان كما تقول الخرافات، ولكنه يتحرك فوق الكرة الأرضية يتقدم ويتراجع بطريقة تشبه تكييف الهواء لكن على نطاق واسع تتكون الكتل الهوائية في مناطق معينة على الكرة الأرضية هي القطبية والاستوائية، ولهذه الكتل خواصها التي تكتسبها من طبيعة المكان الذي تتجمع فيه والتي تمر عليها فتتأثر درجة حرارتها ودرجة رطوبتها وتتكون كتل الهواء الباردة فوق المناطق الباردة وتتجمع كتل الهواء الساخنة فوق المناطق الحارة.
ولهذه التجمعات الهوائية ثلاثة أبعاد تمتد من سبعمائة ميل إلى ألف وخمسمائة ميل طولاً ومن خمسمائة إلى ستمائة ميل عرضًا واتساعًا ومن ثلاثة إلى ستة أميال ارتفاعًا وعادة تكون تجمعات الهواء البارد لكثافته أقل سمكاً من كتل الهواء الساخن التي تكون أكثر سمكاً بسبب تمددها.
ويفيض إيمان الفتى داخل قلبه وروحه وهو يرى بانوراما إلهية هائلة العظمة تدل على العظمة والقدرة وهو مازال يبحر في أعماق جزئية بسيطة لا تكاد تلفت الأنظار وهي الهواء حين تتجمع تلك الكتل الهوائية المائعة التي تفيض في مجار ضخمة حول الأرض فتتحرك كتل الهواء الباردة من القطبين في اتجاه المناطق الاستوائية أما كتل الهواء الساخنة فتتحرك بعيدًا عن المناطق الاستوائية، في اتجاه القطبين ثم تتقابل الكتلتان عند المناطق المعتدلة، وهناك يتم اندماجهما وتمازجهما وبذلك تفقد كل كتلة هوائية طبيعتها وخصائصها التي تتميز بها تدريجيًا. وهكذا تتكرر هذه الدورة وتمتد الفترة منذ بدء تجمع الكتل الهوائية وتحركها واختلاطها وحتى ضياع معالمها إلى حوالي ستة أسابيع أو أكثر، وهناك أربع كتل هوائية رئيسية هي القطبية القارية والقطبية البحرية والاستوائية القارية والاستوائية البحرية.
وكل هذه التحركات المناضية للهواء تتسبب في التأثير على أنشطة البشر في الزراعة والطيران والصناعة والعديد من أمور الحياة التي نظمها الخالق بعظمته.. سبحان الله عما يشركون! فقط الهواء في حركته المقدورة وبغازاته التي يحملها ضرورتها للحياة فوق الأرض يتسبب في تشكيل حركة هذا الكون ومخلوقاته.
قضية الطاقة الهائلة في الهواء أخذت تداعب عقل الشاب وكيف يمكن استغلال هذه الطاقة الهائلة اللامتناهية في حركة الريح والهواء؟!
وكانت قضية المادة والطاقة وكيفية تحويل المادة إلى طاقة تسيطر على الجانب الرئيسي من تفكيره.
وفي حوار علمي مع مجموعة من أساتذته في الجامعة نظر الأساتذة بعضهم إلى بعض وهو يتجادل معهم في مسألة الطاقة وعلاقتها بالكتلة وإمكانية تغيير أحداهما إلى أخرى كتحويل المادة إلى طاقة أو الطاقة إلى مادة أو كتلة واستدلاله بنظرية أينشتين عن النسبية التي أوضحت أن المادة يمكن تحويلها إلى طاقة كما يمكن تحويل الطاقة إلى مادة وإشارته إلى معادلة بصورة كمية.
حيث أن الطاقة تساوي مجموع الكتلة ومربع سرعة الضوء، وأن مسألة العلاقة بين الطاقة والكتلة وإمكان تغيير أحداهما إلى الأخرى هو الأساس وحجر الزاوية في بناء الطاقة الذرية التي يعلم الجميع أنها أصبحت سيفاً مصلتاً على رقاب أمته بعد أن امتلكها الوحوش أعداء الله بل والبشرية كلها.
وفي تنقيبه وتمحيصه لنظرية النسبية لأينشتين كان الشاب المتحمس لعلمه المذعور على مستقبل أمته يعلم أن في العمليات الكيميائية العادية يكون تغير وتحول المادة إلى طاقة ضئيلاً جداً، ولا يمكن إدراكه ولكن عند انقسام نواة الذرة إلى أجزاء تكون هناك كمية مفقودة من الكتلة فيصاحب الانقسام انطلاق كمية هائلة من الطاقة، والشمس مثال على ذلك لأن بعض مادتها تتحول إلى طاقة.
كان الأساتذة مأخوذين بعرضه العلمي ونقاشه عالي المستوى، معجبين بقدرته على التركيز وتنظيم أفكاره العلمية فقال له أحد أساتذة الفيزياء: - «لا تنس أن أينشتين رغم أنه توصل إلى قانون أساسي عام يربط المادة بالطاقة فانه حاول إيجاد، أو أنه قد يكون هناك قانون آخر يربط الكهرباء بالمغناطيسية والجاذبية والإشعاع من خلال بحثه في نظريته عن المجال الموحد».
قال الشاب بثقة: - «نعم سيدي هذا صحيح، لكن رغم ثبوت نظرية النسبية ثبوتًا قاطعًا بالتجارب العلمية إلا أن أينشتين نفسه لم يستطع أن يقترح أو يجد طريقة لتحقيق نظرية المجال الموحد». كان الشاب يغرق مع علومه عن الطبيعة والذرة والفضاء والفلك بشكل جعله لا هم له ولا متعة سوى الاستغراق في الأبحاث والمراجع العلمية ومختبرات الجامعة وجهاز الكمبيوتر، ساعده على ذلك أسرة متفهمة لم تبخل عليه بشيء وطاقم من الأساتذة العلماء تنبهوا إلى أن القدر يخبئ شيئاً مهماً في هذا الفتى.. لقد توسموا فيه ملامح العبقرية ورأوا فيه إرهاصات عالم عربي مسلم توقعوا أن يكون له شأن عظيم في حقل العلم وميدانه.
وفي مجال الذرة وصل الفتى إلى مستويات عظيمة في معرفته بالذرة وفهمه لأبعاد علومها واختلاف خصائصها واعتماد هذه الخصائص على عدد البروتونات والنيترونات في نواتها واحتمالات أوضاع الالكترونات في كل منها، وإمكانية موضع الالكترون دائم الحركة وكيفية

تكوين صورة متكاملة للذرات تشمل جميع الحقائق المعروفة عنها، وكان أكثر ما يثيره هو اليورانيوم هذا العنصر الخطير والشهير في العالم الذي صنع منه الوحوش قنابلهم الذرية وذرته العالية ذات الـ92 (الاثنين وتسعين) بروتوناً والـ92(اثنين وتسعين) الكترونًا ذي الوزن الذري 238 وكيفية استخدام نظير اليورانيوم 235 الذي صنع الوحوش منه القنبلة بعد معالجة اليورانيوم 238 وهذا النظير هو مجرد جزء صغير من عنصر اليورانيوم 238.

وفهم الفتى ميكانيزم تفجير القنبلة الذرية، وهو أنه لكي تصيب نواة الذرة وتفجرها يحتاج إلى قذيفة مناسبة وإلى ذرة ملائمة وأن اليورانيوم 235 يتفتت عند إصابته إلى أجزاء، وعلم أن نيوترون الذرة أفضل قذيفة توجه للنواة لأنه لا يحمل شحنة ولذلك لا يتنافر مع نواة ذرة أخرى وعندما تصيب قذيفة من النيوترون نواة ذرة اليورانيوم تتكسر النواة إلى عنصرين متوسطين وقليل من القطع الصغيرة، والقطعتان الكبيرتان عنصران متوسطان، وأما القطع الصغيرة فهي عبارة عن بعض نيوترونات حرة.. ويؤدي انقسام الذرة في هذه الحالة إلى إطلاق كمية من الطاقة وتحرير بعض النيوترونات التي تنطلق بدورها لتحطم ذرات أخرى من ذرات اليورانيوم 235 وهنا يبدأ التفاعل المتسلسل.

كما وجد الشاب أن القنبلة الذرية - بنموذجها الذي ألقي على هيروشيما- كانت عبارة عن كمية معينة من المادة الذرية مقسمة إلى جزأين منفصلين لا يتصلان إلا في آخر لحظة عند إلقائهما وتفجيرها، وهذه الكمية تسمى الكمية المناسبة وهي الضرورية لحدوث التفاعل المتسلسل الصحيح عندما تعمل إحدى الذرات على تحطيم ذرة أخرى في تسلسل هائل السرعة لتحدث في النهاية قوة انفجار تعادل عشرين ألف طن من الديناميت T. N. T. وقرأ الشاب عن التطورات التي حدثت بعد ذلك حين استمرت التجارب لتقسيم اليورانيوم 238 بدلاً من فصل النظير 235 وتوفير هذه الخطوة، ولكن التجارب أعطت نتائج مفاجئة للعلماء لم تكن متوقعة وهي أنه عندما قذف اليورانيوم 238 بنيوترون امتصته النواة، وبدأت تحدث سلسلة من التغيرات مكونة عنصرين جديدين هما «البنتونيوم والبلوتونيوم».

وهذا البلوتونيوم يمكنه الانشطار إذا أصاب النيوترون نواته في ظرف ملائم ليحدث التفاعل المتسلسل، ويمثل هذا حدوث انفجار ذري مثالي من البلوتونيوم الذي صنعه الإنسان. ووصل الشاب أيضاً إلى عملية الاندماج وهي عكس عملية تحطيم الذرة الذي يؤدي إلى التفاعل المتسلسل.

وهذه الطريقة تقوم على طريقة بنائية لإطلاق الطاقة، فعندما تصطدم ذرتان وتندمجان لتكونا ذرة أثقل من كل واحد منهما- وهي ستصبح بالتالي ذرة أكثر تعقيداً - تتحول بعض مادة الذرات الأصلية إلى طاقة هائلة أكثر من الطاقة المتولدة عن الانشطار وسبحان خالق هذا الكون العظيم.. سبحان الله وتعالى عما يشركون.

والقنبلة الهيدروجينية قنبلة ناتجة عن عملية الاندماج، لقد كان الشاب يصاب بحالة من الهلع العلمي نتيجة المعلومات المخيفة التي كان يتوصل إليها خاصة في حالة القنبلة الهيدروجينية، حين وجد أن عملية الاندماج التي يتم بها صنع القنبلة الهيدروجينية هي عملية تفجير مستمرة ومتواصلة وهي تعني قنبلة ذرية داخل القنبلة الهيدروجينية لتفجير الأخيرة.. إن القنبلة الذرية في هذه الحالة تستخدم كمفجر للقنبلة الهيدروجينية.

لقد استخدم الشياطين والوحوش من علماء الغرب نظرية الشمس.. إنها عبارة عن الهيليوم والهيدروجين وتنتج الطاقة عن طريق الحرارة الهائلة في الشمس التي تعمل على اتحاد ذرات الهيدروجين الخفيفة لتكوين الهيليوم، حيث تغلب أولئك العلماء على مشاكل إيجاد الحرارة العالية وبطء عملية تطور اندماج الهيدروجين حيث لابد من صناعة قنابل يحدث فيها الاندماج بسرعة وفي وقت قصير جداً.

والقنبلة الذرية الناتجة من الانشطار تنتج درجات حرارة عالية وهائلة - وانطلاق هذه الحرارة الهائلة في لمحة من الزمن كاف لبدء تفجير القنبلة الهيدروجينية. لقد وجد الشاب أنه في حالتي الانفجار «الانشطار والاندماج» يحدث تحول بين المادة والطاقة، وفي كلتا الحالتين يتحول جزء من المادة الذرية إلى طاقة ذرية، وعندما يتم هذا التحول تكون سرعة الضوء عاملاً مهماً في تقدير كمية الطاقة المتولدة.

وكان الشاب يرى كيف تحول إنسان حضارتهم إلى وحش يتوخى الدمار والفناء كهدف له، فإذا كانوا يعتقدون أن هذه الأسلحة الفتاكة هي التي تكفل الأمن والسلم فلماذا لم يحولوا هذه الاكتشافات إلى الوجهة الأخرى وهي ازدهار البشرية في ظل روح مؤمنة بقيم الإسلام العظيمة دونما اتباع لشيطان وأهواء العنصرية والبغضاء المقيتة التي تسيطر على عقولهم تجاه أبناء أمة التوحيد؟!. كانت مشاعر متباينة تجتاح هذا الشاب العبقري وهو يرى هذا الكم الخطير والمخيف من وسائل الدمار والموت والتي تعكس حالة مخيفة من الكراهية وعقد العداء المستحكم والحقد القاتل في صدور من يسمون ببناة حضارة قوامها القتل والدمار وسفك الدماء وأفكار الفناء!! كانت مقارنات حقيقية تدور في ذهنه بين ما يراه ويسمعه حوله في كل مكان وبكل الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية في محاولات مستميتة وشريرة لإلصاق أبشع التهم بعقيدته وهي من كل هذه التهم براء.

إنه يعلم يقينًا ومن واقع أصول عقيدته وركائزها أن الإسلام عقيدة تدعو وتقوم على الحرية والعدالة والتواد والتراحم والتسامح بين كل المسلمين من جهة وبين باقي البشرية ذوي العقائد الأخرى من جهة ثانية... إنها عقيدة تدعو إلى الرحمة والتعاون والتكافل الإنساني بين البشر لا تفرق بين أسودهم وأبيضهم ولا تدعو أبدًا إلى الكراهية والبغضاء .. لقد كانت الآيات الكريمة وهي نصوص مقدسة لا تقبل جدلاً أو تأويلاً تتردد في عقله {ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ} (النحل : 120).

وتأتي الآيات العظيمة المتعددة والأحاديث النبوية الشريفة والسلوكيات النبوية العظيمة التي هي أجدر بالإقتداء في معاملة الآخرين ذوي الأديان المختلفة.

ويدور في خاطره مجموعة من الأسئلة.. ألم يقرأوا القرآن؟ وإذا كانوا قد قرأوه ألم يفهموه؟ وإذا كانوا قرأوه وفهموه.. فلماذا يحدث ما يحدث؟ وما هو سبب هذا القدر المخيف من الحقد على الإسلام؟!. ويعود عقله يردد في إجابات ذاتية! إنهم يعلمون علم اليقين أن الإسلام دين عظيم وهو خاتمة الرسالات وجاء للبشرية جمعاء.. هديًا ونوراً ورحمة.

ويعود فيسأل نفسه.. ألم يقرأوا للشخصيات الأوروبية البارزة من العلماء والمفكرين الذين اعتنقوا الإسلام عن اقتناع ويقين بأنه شريعة الله الخاتمة، وعن فهم بأن هذا الدين القيم هو الحق وهو الذي يلبي مطالب الإنسان الروحية والحياتية المادية وينظمها بشكل بليغ وفي إعجاز لا يقدر عليه إلا خالق أعظم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟!.

ويتذكر جارودي ذلك الفيلسوف والمفكر الفرنسي وأحد ألمع الشخصيات السياسية والفكرية العامة في فرنسا، ذلك العالم الذي اعتنق الإسلام وتعرض في سبيل اعتناقه لأبشع معاملة يتعرض لها مفكر وسيد في قومه. لقد وعي جارودي عند دراسته للثقافات غير الغربية الإمكانيات الخاصة للعقيدة الإسلامية، فالرجل لم يعتنق الإسلام بمحض الصدفة بل جاء إسلامه بعد بحث طويل في حضارات وديانات العالم كله.

ويتذكر الشاب قول جاوردى: »أحب أن أقول إن انتمائي للإسلام لم يأت بمحض الصدفة بل جاء بعد رحلة عناء وبحث، ورحلة طويلة تخللتها منعطفات كثيرة حتى وصلت إلى مرحلة اليقين الكامل والخلود إلى العقيدة أو الديانة التي تمثل الاستقرار، والإسلام في نظري هو الاستقرار«.

وباعتبار أن جارودي أحد المفكرين الأوربيين البارزين والمؤثرين في الثقافة والفكر الأوربي فقد لخص حيثيات إسلامه في نقاط ثلاث خلال حديثه لمجلة لوموند الفرنسية كالآتى: فالنقطة الأولى: لم يزعم النبي محمد [ أبدًا أنه اختلق ديانة جديدة لكنه يدعونا إلى العقيدة الجوهرية عقيدة إبراهيم عليه السلام، ومعترفًا بأن موسى والمسيح عليهما السلام نبيان للإسلام.

والنقطة الثانية: الإسلام لا يفصل بين علم الحكمة وحكمة الوحى. العلم الإسلامي في ذروته - في جامعة قرطبة - لم يفصل البحث في الأسباب عن البحث في الغايات ، بعبارة أخرى أنه يجيب على السؤال (كيف)؟ والسؤال (لماذا)؟! بهذه الكيفية يصبح العلم والأسلوب في خدمة تألق الإنسان وليس تحطيمه بإثارة رغباته وإرادة تسلط مجموعات أو قوميات.

وفيما يتعلق بالوحي فإنه لا يتعارض لا مع العلم ولا مع الحكمة لكنه يعينهما على الوعي بحدودهما وبمسلماتهما.

ثم يعبر جارودي عن ذلك بكلمته البليغة «الإيمان عقل بلا حدود» وبذلك يضع العلاقة بين العقل والدين في إطارها الصحيح.

أما النقطة الثالثة: يسمح الإسلام بوضع مشكلة العلاقات بين العقيدة والسياسة «علاقات بين بعدين للإنسان» دون أن يخلطهما مع العلاقات بين الكنيسة والدولة «علاقات بين مؤسستين» مثلما حدث كثيرًا في أوربا وبخاصة في فرنسا.

ثم يختم جارودي حديثه مع مجلة لوموند الفرنسية قائلاً: «هذا هو معنى اختيار عقيدة التوحيد وهي في نفس الوقت علم أخلاق العمل، لأن الإسلام لا يعني الطاعة بمعنى الاستسلام والجبرية والخضوع فهذا استسلام لكنه الاستجابة لنداء الله سبحانه وتعالى استجابة نشطه، حرة، مسئولة.. وبعيداً عن التهكم والتهديدات.. والوصول مثلما كتبت إلى الفرج العظيم: أن أظل بعد سبعين عامًا مخلصًا لحلم سنواتي العشرين».

ويتساءل الشاب وهو مستغرق في أبحاثه وقراءاته العلمية ليكشف عن زيف هذه الحضارة العرجاء المشوهة التي تتوخى القوة الغاشمة الظالمة كهدف.. يتساءل: ألم يقرأوا لمفكرهم جارودي كتابه »وعود الإسلام« الذي يقرر فيه جاروردي باعتباره ابناً لهذه الحضارة وأحد روادها الفكريين.. أن الغرب لديه - منذ مطلع عصر الرأسمالية والاستعمار - إصرار متصاعد على تجاهل كل حضارة ذات أصل غير أوروبى! وقد استمرت أوروبا في تجاهلها لحضارة الإسلام عبر قرون عديدة ولم تر فيه سوى عدو لدود، في حين أنه ليس من الإنصاف في شيء أن يعتبر الإسلام كفراً كما كان الحال في عصر الحروب الصليبية - أو إرهاباً مثلما كان يوصف به إبان حرب التحرير الجزائرية - فلم يعد هذا الدين قطعة من متحف يقوم بفحصه مستشرق يبدي حوله أحكامًا مسبقة وتعسفية.

ويكشف جارودي النقاب عن دور الحضارة الإسلامية باعتبارها منهلاً ثالثًا للحضارة الغربية ورثية حضارتي اليونان والرومان؛ إذ من الإنصاف الاعتراف بوجود مصدر ثالث لها قد يكون أخصب وأهم من المصدرين اللذين يعترف بهما الغربيون.

ويستنطق جارودي في هذا الشأن الوثائق التاريخية والمراجع الموثوق بها ليفند مزاعم خصوم الإسلام ومنها إنكاره ادعاءات مناوئ دين الإسلام الذي يقول «إن شبه الجزيرة العربية ومكة والمدينة تقع عند ملتقى الطرق التجارية الكبرى والقوافل القادمة من الغرب إلى الشرق، من أوربا إلى الشرق الأدنى في الهند والصين، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندى.. إنه في هذا الملتقى من الحضارات أمكن فحسب حدوث تمازج بين الأديان والثقافات وليس الإسلام في ذلك إلا المحصلة والمبلغ».

وفي الواقع كانت تلك الأديان والمعتقدات آنذاك في حالة تفسخ وتميع بدرجة يستحيل معها الاستفادة منها أو أن تكون منطلقًا لحركة عالمية واسعة مثل الحركة الإسلامية. بالطبع لم يقرأوا.. أو قرأوا وهذا هو الأكيد.. لكنهم دلسوا وزوروا وتعمدوا التضليل والعناد، ثم يأتي جورودي ليذكر بالعوامل التي ساهمت في انتصار المسلمين على ملوك فارس وبيزنطة والقوط.

ومن هذه العوامل التي يذكرها جارودى:

أولاً : جوهر الإسلام وروحه

حيث لم يفصل الحكمة عن العلم ولم يقبل معالجة أي فرع من فروع العلم بمعزل عن العقيدة التي هي في حد ذاتها هدف ومعنى للوجود، فكل ما في الطبيعة مظهر من مظاهر وجود الله، فليست معرفة الطبيعة إلا شكلاً من أشكال العبادة المقربة لله ولهذا ساهم المسلمون بعلمهم في اندماج ميراث شتى الثقافات العالمية الكبرى.

ثانيًا : انفتاح الإسلام وتسامحه:

وتتجلى هاتان الخصلتان في قبوله وحمايته أفرادًا وجماعات ومجتمعات غير إسلامية.
فقد تقلد يهود ونصارى وأعضاء طوائف أخرى وظائف هامة في حكومات إسلامية عديدة وحظيت أديان مختلفة بكامل الحقوق والرعاية وسمحت السلطات لغير المسلمين بممارسة شعائر دينهم دونما تضييق.
إن جارودي يؤكد كمفكر وباحث ومنقب وناقد أوروبي بارز أن الإسلام لم ينتشر بقوة السلاح، ولم يسَلَّ النبي محمد [ سيفة إلا في حالة الدفاع عن النفس. ويشير في ذلك إلى الحديث الشريف «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» والذي يعني به محاربة هوى النفس.
ويقول جارودى: «إنما الجهاد الأكبر هو كفاح ضد الذات، ضد الميول التي تجذب الإنسان بعيدًا عن مركزه.
وما زلنا نجد اليوم في هذا درسًا عظيمًا لكثير من الثوريين الذين يحاولون تغيير كل شيء ما عدا أنفسهم كما كان فيما مضى شأن الكثير من الصليبيين الذين كانوا في القدس وفي أسبانيا أو ضد هنود أمريكا، يريدون أن يفرضوا على الآخرين مسيحية يهزؤون منها بكل عمل من أعمالهم».
ثالثًا: وحدانية الإله وتعاليمه
وهذا المبدأ يفضي إلى تساوي جميع البشر دون استثناء، الأمر الذي جعل الإسلام دعوة لتحرير الشعوب المقهورة سياسياً واقتصادياً ودينياً.
وفضلاً عن ما سبق فإن الفتح الإسلامي لم يشكل استعماراً فقد استقبل مثلاً شعب أسبانيا الفاتحين المسلمين الذين أنقذوهم من غطرسة وطغيان سلطات بلادهم الروحية والزمنية فلم يقاوموهم. ولعل أصدق صورة تعكس هذه الحقيقة هي أن العرب فتحوا الأندلس في بحر سنتين فقط، في حين تطلب استعادتها منهم سبعة قرون.
ويتطرق جارودي إلى العقيدة بقوله: «ينبغي أن تكون رؤيتنا للإسلام عبر القرآن والسنة النبوية المطهرة فهذا الدين ينبذ الازدواجية المزيفة في شئون السياسة والعقيدة والمسجد والدولة.
ولاشك أن في مقدرة الإسلام السيطرة على الأزمة الحضارية والأغلال في المجتمع الغربي بفضل تشبثه بوحدانية الخالق وبوحدة العقيدة والعمل، فهو حامل لعوامل الجهاد ضد الاستلاب الاستعمارى.
وقد نجح فعلاً في بث روح الجهاد في نفوس الجزائريين بالأمس ويدفع اليوم المجاهدين من الأفغان إلى التضحية بكل نفيس».
ثم يتطرق جارودي في حديثه عن الإنسان الغربي فيقول: «أما الإنسان الغربي فقد أفرط في علاقته مع الطبيعة والمجتمع والإله، فيعتقد أنه سيد الطبيعة ومالكها ويعتبرها مجرد مستودع للمواد الخام يتلاعب به حسب هواه، وبهذا يؤكد أن النصرانية لم تساعد الإنسان على الحفاظ على البعد العالمي الذي دعا إليه الإنسان خصوصًا بعدما انضمت النصرانية في القرن الرابع الميلادي إلى الوثنية اليونانية.
وظل الإنسان في المجتمع الغربي منذ النهضة الأوروبية منعزلاً عن أمثاله من البشر، حتى إعلان حقوق المواطن الذي ينص على أنه (تقف حريتي حيث تبدأ حرية غيرى) والذي لم يقنع أحدًا، إذ يعني أن حرية الآخرين ليست شرطًا لحريتي أنا، إنما هي حد لها، لهذا تأرجحت مجتمعات الغرب وكذا تلك التي تقتفي أثرها في العالم الثالث بين فردية متوحشة وطغيان ممقوت».
ولم يتوقف الشاب عن التأمل في حالة التناقض الهائل بين مفاهيم الغرب المتوحش وبين عناده في تقبل هذا الدين الذي تقبله الروح ويقبله العقل فورًا دونما جدل. ويتعجب الشاب مستغربًا هذا السلوك العدائي البشع، وهو يكمل آراء جارودي في الإسلام خاصة في الاقتصاد والحقوق والسياسة، فيقول: «إن الاقتصاد والحقوق والسياسة تنطلق إسلامياً من مبدأ إسلامي مسلم به هو: نفي كل فصل بين مشاكل الحياة الدنيوية وبين مبادئ العقيدة، فالله هو المالك والمشرع والقائد».
ويقول جارودي في الأولى: يناقض مفهوم الإسلام للاقتصاد المفهوم السائد في الغرب حيث لا يعني الاقتصاد سوى الإنتاج والاستهلاك كهدفين لذاتهما.. إنتاج أكثر واستهلاك أكثر فأكثر، وأسرع ما يكون لأي شيء تافهاً كان أو نافعاً، دون أدنى رعاية للغايات الإنسانية، بينما لا يهدف الاقتصاد في ظل النظام الإسلامي إلى النمو لذاته ولكن إلى التوازن، كما يستبعد أقل تشابه بين الرأسمالية والنظام الجماعي وبين النظام الاقتصادي في الإسلام، فهذا الأخير يتمتع بخصوصية أساسية تتمثل في رفض الخضوع الأعمى للآلة بل هو يحمي غاية في ذاته باعتباره تنظيمًا لأهداف عقائدية إنسانية سامية.
ولم يكن الاقتصاد في ظل النظام الإسلامي محايدًا تاركًا الحبل على الغارب حيال القوى الحية، فالسوق التي هي إحدى دعائم الاقتصاد توجد من أجل إرضاء الحاجات الحقيقية وتتجاوب مع أسس وقواعد الإسلام.
ويستشف من خلال ذلك التوازن في توزيع الدخل والحيلولة دون الاحتكار.
فهي من هذه الناحية تراقب مراقبة صارمة ويقوم بهذه الوظيفة المحتسب المكلف بتنظيمها والسهر على الأسعار فيها وبعبارة موجزة: ليست السوق غاية إنما هي إحدى الوسائط {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ} (النور: 37).
وتعكس الزكاة التي لا تعتبر مجرد صدقة تعطى كيفما اتفق- إنما هي اقتطاع من رأس المال - صورة من صور التأمين الاجتماعي الذي لم تعرفه أوروبا إلا في القرن العشرين وبعد صراع مرير، في حين أن مثل هذا التنظيم مطبق في الإسـلام منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً كأحد قواعد العقيدة.
وبعبارة أخرى يرتكز الاقتصاد في الإسلام على أسس تغاير أسس نظام الاقتصاد في الغرب وفي الشرق على السواء - فهو نسيج وحده.
أما عن الحقوق فيقول جارودى: إن الإسلام يعتبر الإنسان جزءًا من كل، إلا أن مفهوم هذه الكلية يغايرما يُعنى به لدى الغربيين فهو يقابل الفردية عندهم.

ولا تمت الشمولية الإسلامية بأي صلة للاستبداد ولا للفاشية التي تدعي أن الإنسان غير ذي قيمة ولا حقيقة له إلا من خلال الدولة.. فالعلاقة بين الإنسان وهذا الكل في الإسلام ليست علاقة بيولوجية ولا وظيفية أو اجتماعية.
ومثل تلك العلاقات لا تتواجد إلا في مجتمع لا غاية له سوى ذاته - أي لا يحمل أي مشروع عدا نموه وقدرته - بالعكس رمى المجتمع الإسلامي إلى أهداف تتجاوز ذاته وينبني على أساس المساواة والحرية.
وبحكم تلك القيم السامية يتساءل جارودي عما ستكون مساهمة الشريعة اليوم في تقدم عجلة الحضارة؟ ويقول لقد وضع المسلمون قواعد التجارة البحرية حتى في فترة الحرب، ولم يدون الغرب شيئًا من ذلك إلا في سنة 1340 ميلادية في برشلونة بالأندلس بعد اقتباس الكثير من القواعد الإسلامية إثر عودة الصليبيين من فلسطين.
ومدونة (الفوتسو العاشر) التي تشتمل في قسمها العاشر على تشريع حول الحرب لم تكن إلا انتحالاً لكتاب أُلف بالأندلس في الموضوع ذاته، وكان النص العربي يعالج كيفية حماية الأطفال والنساء والعجزة وكيفية الالتزام بالعهود والمواثيق وقت الحرب.
ومن نبل المسلمين بهذا الصدد أن أطباءهم بفلسطين كانوا يتعهدون معسكر النصاري إثر المعارك قصد معالجة جرحاهم، بل تهذبت الفروسية في أوروبا بفضل الاحتكاك الذي حدث بين العرب المسلمين والأوروبيين. ويتوقف الشاب وكأنه اكتشف كنزاً حين يرى تعجب جارودي من تعصب الغرب الأعمى في موضوع حقوق المرأة في الإسلام ويقول في ذلك: «إن القرآن منح المرأة حق امتلاك الأموال دون قيد أو شرط، بينما لم تنل هذا الحق في أغلب تشريعات الغرب إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين«.
وبالنسبة للسياسة يؤكد جارودى: أن محور الأمة هو عقيدة أساسها أن يتجاوز كل فرد مصالحه وأغراضه الشخصية لمصالح الأمة التي تشمل الإنسانية جمعاء. فالسلطة الزمنية - شأن الملكية - مؤسسة تتعدى نفسها، إذ لا تعترف العقيدة الإسلامية بسلطة أخرى سوى سلطان الله تبارك وتعالى، لهذا تظل السلطة السياسية نسبية، وإذا كان الأمر كذلك فلا تجوز مقارنة النظام السياسي في الإسلام بالثيوقراطية ولا بالملكية باعتبارهما حقين إلهيين لدى الغرب ولا حتى بالديموقراطية من النوع البرلمانى.
وإنما تقع على عاتق كل مسلم مسئولية فهم وتطبيق قواعد الإسلام في مجال السياسة في كل بلد وفي كل عصر بشكل يتلاءم مع روح وظروف تلك البلاد في ذلك العصر.
وفي مجال العلوم والحكمة يتحدث ذلك الفيلسوف المسلم حول أن تاريخ العلوم والتقنيات في الغرب يرتكز على فرضية ضمنية، حيث يقاس تقدم العلوم والتقنيات بمدى فعاليتها لضمان دوام السيطرة على الطبيعة والإنسان دون أن يكون هناك أي هدف آخر. أما الإسلام - دين التوحيد - فينفي التفريق بين العلم والعقيدة.
إذ إن كل ما هو موجود في الطبيعة دليل على وجود الله سبحانه وتعالى، حيث تصبح معرفة الطبيعة نوعًا من العبارة فلا غرو أن يعمل المسلمون على اندماج الثقافات العالمية لتستفيد منها البشرية جمعاء، على حين تجمدت العلوم في أوروبا النصرانية لأن الكنيسة أبدت ريبة تجاه الطبيعة زاعمة أنها تُبعد عن الإله، وهكذا استمرت النصرانية تحارب العلوم عبر تاريخها بينما انطلق العلم في الإسلام من مبدأ الوحـــدانية حيث لا مجال للتفريق بين الطبيعة وبين علم الكلام والفنون المختلفة.
هنا كانت الإجابة التي ينشدها الشاب على تساؤلاته بشأن التوجه للاكتشافات العلمية وتسخير الجهود العلمية لابتكار وصنع أسلحة الفناء والدمار الشامل. إن هذه الجزئية في تفسير جارودىء وإيضاحه لفلسفة وجود وهدف العلم في كلا المعسكرين المتمثلين بغرب متوحش ومعادٍ، وإسلام يقدم نفسه بنجاح وإقناع وإقبال من العقول السوية والنفوس الرضية والقلوب السليمة كمشروع حضاري شامل يقدم للبشرية كلها كافة احتياجاتها للمادية والروحية كما يضيء لها نهاية النفق المخيف الذي دخلت إليه الحضارية الغربية وتحاول فرضه على العالم كله.
بهذا الجواب أعطى جارودي جواباً مقنعاً للفرق بين نظرة الحضارة الغربية للعلم والتكنولوجيا حيث يقاس تقدم العلوم والتقنيات في الغرب بمدى فعاليتها لضمان دوام السيطرة على الطبيعة والإنسان دونما وجود أي هدف آخر.
أما في دين التوحيد فينبغي التفريق بين العلم والعقيدة على اعتبار أن كل ما هو موجود في الطبيعة دليل على وجود الله سبحانه وتعالى وحيث يصبح العلم والمعرفة نوعًا من أنواع العبادة. وهذا هو الفرق.

* * *

كان كل ذلك مختلطًا ومتمازجًا، العلم الذي كان يدرسه بشغف والإيمان الذي كان ينطلق من خلاله ليحصل على الإجابة.
لكن الجواب هنا مخيف... لقد أصبح الأمر عداءً وحقدًا يملك بعلوم العصر أفتك أسلحة الدمار وأسباب القوة المادية الساحقة ضد أمة لا تعرف في فلسفتها الروحية سوى السلام والمودة والتراحم، وإيمان عظيم مطلق بإله واحد أحد منفرد لا شريك له وشريعة عظيمة أهداها الخالق جل وعلا للبشرية هدياً ورحمة. إنه لأمر جلل، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

جلس الشاب أمام جهاز الكمبيوتر ليتابع دراسته ومتابعته لبعض الكواكب والمجرات وكانت الساعة قد قاربت على الثالثة من صبيحة الجمعة، وكان باب الشرفة مفتوحاً لهواء البحر يتسلل منه لطيفًا نقيًا وكانت نفس الشاب قد استراحت واطمأنت بإيمانها. وعلى شاشة الكمبيوتر كان البرنامج عن أقمار جاليليو الأربعة والتي مرت به فوياجير 1، 2 وهو القمر كاليستو وهو آخر المجموعة المكونة من القمر أيو والقمر يوروبا والقمر جانيمير وأخياً القمر كاليستو.
وعلى شاشة الكمبيوتر تخيل الشاب وهو يحملق في الفضاء على الشاشة ويتابع تحركات الأقمار أن هناك مخلوقًا فضائيًا يبتسم له على شاشة الجهاز أمامه وبين دهشة الشاب ورغبته في أن يكون ما يحدث حقيقة دار حوار بين الفتى والمخلوق.

وجاء الحديث مكتوبًا عبر الشاشة من المخلوق الفضائي وجاءت إجابات الشاب منطوقة وصوتية.
أيها الشاب: مرحباً بك إننا نلتقطك الآن في كاليستو ونتمنى أن تصبح صديقًا لشعب كاليستو.
قال الشاب وهو يفرك عينيه من الدهشة: مرحباً.. مرحباً.. إنني أشك أن يكون ما يحدث الآن حقيقيا.
- إنه حقيقي تماماً أيها الشاب... ونحن نتابعك منذ بدأت الاقتراب منا في بحثك ومتابعتك للمجموعة.
الشاب:إن كان ذلك حقيقياً فإنني أرحب بصداقتكم.. لكن اسمح لي فأنا مندهش وأتساءل كيف حدث ذلك؟ إن هذا أمر غير طبيعى!.
- لماذا تعتبر ما حدث غير طبيعي وأنت تفكر في نظريات المادة والطاقة وكيفية التحول... أليس هذا صحيحاً؟.
الشاب: نعم صحيح ومعنى ذلك أنكم متقدمون جدًا في علومكم.
- نعم هذا صحيح ونعرفكم تماماً... كما نعلم أنكم متخلفون عنا بسنوات ليست كسنواتكم وزمنكم بل كزمننا نحن... سنوات ضوئية.
الشاب: دعني أسألك هل أنتم مؤمنون؟.. أعني هل تدينون بدين ما؟.
- نعم نحن مؤمنون بالخالق الأعظم الذي خلق هذا الكون العظيم وما فيه من مخلوقات... ودعني أزيدك فيما تريد إننا مسلمون نعبد الله ونصدق برسله وخاتمهم النبي محمد [.
اِغرورقت عينا الفتى وهو يقول: هل تعلمون بما يحدث الآن على الأرض؟ هل.. فقاطعه المخلوق الفضائي قائلاً: لا تكمل ودعني أقل لك إننا نعلم تمامًا حجم الشر في كوكبكم وما يحاك ضدكم أنتم معشر المسلمين.
فقال الشاب: هل تعلمون بأمر تقدمهم العلمي واختراعاتهم المدمرة؟ هل تعرفون شيئًا عن القنابل الذرية والهيدروجينية التي يهددون بها أمتنا؟.
فابتسم المخلوق الفضائي قائلاً: إنهم يحاولون الآن إنتاج (Bomb Ethno) القنبلة العرقية أيضًا وهي موجهة لكم.
فقال الشاب: هل تعني أنهم سينتجون قنابل تعتمد على الحمض النووي للمسلمين فقط DNA؟.
فأجابه: نعم تمامًا.. هذا هو مقصدى.
فقال الشاب وهو يعتدل على مقعده: «هل تستطيعون مساعدتنا وحمايتنا من شرهم؟».
فأجابه بسرعة ويقين: «عليكم أنتم أن تعملوا وتجتهدوا منطلقين من إيمان قوي بالله الأعظم وبإذن الله ستنتصرون.. إنكم في حماية الله وحفظه... ألم تقرأ في القرآن قول الله تعالى {ولينصرن الله من ينصره} وقوله تعالى: {إن جندنا لهم الغالبون}؟!».
قال الشاب وقد غلبه البكاء: نعم.. نعم، صدق الله العظيم.
فقال له المخلوق الفضائي: هل تقبل دعوتنا لزيارة كوكبنا؟.
قال الشاب وهو يمسح دموعه: صحيح؟.. هل يمكن ذلك؟
فقال المخلوق الفضائى: نعم.. بشرط واحد. فأسرع الشاب متسائلاً: بالله عليك.. ما هو هذا الشرط؟!.
فقال المخلوق الفضائي: أن تقول وداعاً أيتها الأرض.